أثر البيئـــة

أثرت البيئة فى الشعوب فى الأزمنة الغابرة ووجهتهم نحو الطريق الذى قررته لهم ، فإذا كانت البيئة غابية فقد عاش السكان على الصيد والقنص وما تجود به الغابة من محصول وأخذوا يتجنبون مايعيش بها من حيوان خطر ومن زواحف مهلكة وحشرات سامة ، بطرقهم البدائية التى تكفل سلامتهم .

وإذا كانت الأرض سهلة كثيرة المياه ، خصبة سهلة الحرث ، فإن الزراعة هى خير مايمكن أن يقوم به ساكنوها ، فإن استغلالها بهذه الطريقة يجود على أهلها بأوفر الخيرات وأهم المنافع .

وبيئة البحار ، حيث تكثر الأسماك التى يعيش على صيدها السكان ، فإن هذه البيئة يمكن أن تستغل خير استغلال ، لو وجه السكان همهم نحو الصيد والنقل البحرى .

نلاحظ فى الحالات السابقة وفى حالات أخرى مشابهة ، أن المحيط أو حالة البيئة هى التى وجهت ساكنيها نحو المعيشة التى تلائمها ، وتجد السكان مضطرين للخضوع لها ، ولكن عندما تطورت عقلية الإنسان وارتقت مداركه ، أخذ يوجه البيئة إلى الجهة التى يرضاها ، ولم يعد منقاداً لها ، بل أصبح فى كثير من الأحيان هو المسيطر عليها . فنجد أن الغابة تقطع أشجارها إذا وجد أن محصول زراعتها يغل أكثر مما تغل أشجار الغابة ، أو إذا علم أن طبقات أراضيهـــا غنية بالمعادن كالفحم أو البترول . وفى حالة البحيرات نجد أن قوة الإنسان لم تقف عند حد ، إذ وازن بين أرباح الأسماك ومنافعها الاقتصادية ، وبين ردمها وزرعها بمختلف النباتات ، وخاصة فى البلاد التى تكون فيها الأراضى الزراعية ضيقة ، وقد أمكن الإنسان الآن أن يحول الصحارى إلى أرض زراعية بواسطة المطر الصناعى ، فلم تصبح الصحراء توجه حياة ساكنيها ، بل أصبح المزارع يعيش فيها ويستغل خيراتها كما يعيش فى أرض سهلة خصبة .

وفى بعض الأحيان كانت البيئة تقلب حياة الإنسان من أسلوب إلى آخر ، فبينما الأرض خصبة سهلة الزراعة كثيرة المياه ، إذا بها لسبب من الأسباب يقل ماؤها ، أو يغير النهر مجراه على مر القرون ، فلا يجد الإنسان بداً من أن يترك معيشته الزراعية إلى أخرى غيرها .

ولو استعرضنا حياة بعض الشعوب فى الأزمنة الحاضرة لوجدنا مصداقاً لقولنا ، ففى حالة الكويت مثلا ، كان الغوص على اللؤلؤ هو الموجه للحياة طوال السنة والمسيطر على جميع السكان ، وعندما ابتكر اللؤلؤ الصناعى وانحطت أثمان اللآلئ الحقيقية قلت أرباح الغواصين ، فرضوا كارهين أن يغيروا أنواع عملهم ومعيشتهم ، وارتضوا نوعاً جديداً من العمل — ولو أنه ذو صلة بالعمل السابق — وأقصد به النقل التجارى البحرى (السفر) واستطاعت الكويت أن تقيم على هـذا العمل الجديد تقدمهـــا الاقتصادى النسبى الحديث .

وتختلف الشعوب فى تأثرها باختلاف البيئة وتقلبها ، حسب قواها المعنوية واستعدادها لتكييف نفسها طبقاً للظروف الجديدة ، فقد تعجز بعض الشعوب عن التكيف للبيئة الجديدة والمعيشة الطارئة ، وعند ذلك تحل عليها النكبة العظمى ، ويمكن أن نعزو قوة الإنجليز وتوسعهم فى ميدان الاستعمار ، وقوة أسطولهم ، لنشأتهم البحرية الأولى ولانعزالهم بجزيرتهم عن القارة الأوربية ، وحروبها المتعددة .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى كل الشعوب والعهود .

يعقوب الحمد

◎ مارأيت تبذيراً قط إلا وإلى جانبه حق مضيع .
« معاوية »

◎ لم يكذب أحد قط إلا لصغر نفسه عنده .
« الجاحظ »

◎ هناك قوم يعيشون ليأكلوا ، بينما آكل لأعيش .
« سقراط »

◎ من عرف نفسه لم يضره ماقاله الناس فيه..
« سفيان الثورى »